إميل حبيبي

حوار قبل عشرين عاماً

أجرى المقابلة: **محمود شريح**

حررها ووضع هوامشها: **صقر أبو فخر**

يحتل إميل حبيبي موقعاً خاصاً في خارطة الثقافة؛ إنه أستاذ جيل كامل تحلق حول "الاتحاد" و"الجديد"، وأعاد رسم صورة فلسطين في الوعي والوجدان. بنى حبيبي من خلال "متشائله" صورة جديدة للفلسطيني الذي صنع من بقائه حيلة وأفقاً، ومن كلماته أرضاً جديدة.

الأديب الذي لبس قناع المناضل السياسي، والمناضل الذي التجأ إلى الأديب كي ينقذه من تعقيدات السياسة وعثراتها.

لا تستطيع هذه المقابلة أن تقوم بتلخيص حبيبي، فالرجل الذي أعلن موافقة عصبة التحرر الوطني على قرار التقسيم، تحوّل إلى صوت صمود أهل البلد في منفاهم داخل وطنهم.

كان قائداً وكان ساخراً، لكنه في أطواره كلها كان ساحراً. يسحر قراءه كما يسحر المستمعين اليه. وحين مات طلب أن يُكتب على قبره: باق في حيفا.

كانت حيفا مدينته، فصار كاتبها، وكانت فلسطين بلده فصار أحد أسمائها.

السياسي بالتقلبات العاصفة التي مرت بها قضية بلده، يخلي اليوم مكانه في الذاكرة الفلسطينية، للكاتب الذي صار اليوم أحد أسماء فلسطين.

هذه المقابلة جرت في مدينة فيينا عاصمة النمسا في شباط / فبراير ١٩٩٣، أي قبل عشرين عاماً، وقبل ثلاثة أعوام على رحيله، وبعد تسلّمه جائزة إسرائيل للإبداع. وقد رغب إميل حبيبي آنذاك في عدم الكلام عن الجائزة واختار أن يتحدث عن طفولته وعائلته، وعن الحياة والموت والأدب والإرهاب الستاليني وانحسار الشيوعية وانقلاب الرفاق عليه وعلى تاريخه المعروف.

ننشر نص المقابلة كاملاً تحية للكاتب والمناضل والإنسان.

محطات في السيرة الذاتية

■ **أود أن تتحدث بالتفصيل عنك وعن حياتك، ولا سيما ميلادك.**

□ أنا من بلدة شفا عمرو التي تبعد نحو ٢٠ كم عن حيفا. هاجرت مع عائلتي إلى حيفا في نهاية الحرب العالمية الأولى طلباً للعلم وللرزق. والدي كان معلم مدرسة في شفا عمرو، وكبر في السن، فهاجر إلى حيفا.

■ **هل كان لك إخوة؟**

□ كان لوالديّ تسعة أولاد. أنا الأول الذي ولد في مدينة حيفا، وبعدي جاء شقيقان، وأصبحنا تسعة، أي أن ستة من إخوتي ولدوا في شفا عمرو. الآن لم يبق في قيد الحياة إلاّ أخت عمرها ٨٤ عاماً تسكن في لندن مع ابنتها المتزوجة من رجل إنجليزي، وأخي الذي يقيم في بيروت وهو أصغر منّي، وأخت تسكن في حيفا. أنا أكبر أفراد العائلة، وأصبحت الآن زعيم العائلة، وتوزع الأحفاد وأولاد الإخوة في مختلف أنحاء العالم. كانوا موزعين في سورية ولبنان والعراق، والآن يتجمع أغلبهم في الولايات المتحدة الأميركية، لذلك ما عدت أعرف معظمهم.

بعد فترة من انتقال العائلة إلى حيفا، عرف والدي أن من الضروري تسجيل ولادة الأولاد، وكان مضى على مهلة التسجيل أشهراً عدة. وسُجّلت ولادتي في ١٩٢٢/٢/٢٨، وهذا هو تاريخ ميلادي الرسمي، أمّا تاريخ ميلادي الحقيقي فهو ١٩٢٢/٨/٢٩. أنا من عائلة بسيطة، عائلة عمّال وموظفين. أهلي عملوا في سكك الحديد موظفين، وكذلك في ميناء حيفا، ثم انتقلوا لاحقاً إلى معامل تكرير البترول. وبعد أن أنهيت المرحلة الثانوية في حيفا، وكان أخي يعمل في معمل التكرير، التحقت بهذه المعامل وتابعت دراستي بالمراسلة في جامعة لندن، ودرست هندسة البترول لعامين، ثم علمت أن الإذاعة الفلسطينية في القدس تطلب مذيعين، وكان ذلك في سنة ١٩٤٥، فتقدمت إلى الامتحان.

■ **أَليس في أيام إبراهيم طوقان؟**

□ كلا، كان إبراهيم طوقان قد ترك الإذاعة، وحلّ محله عجاج نويهض. وكان عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) نائبه. كنا نحو ٣٠٠ شاب، ومن حيفا كنّا أنا وعصام مراد. عملت في الإذاعة البريطانية بين سنتَي ١٩٤٠ و١٩٤٢، واستفدت جداً من عملي، وخصوصاً في الدقة اللغوية. عجاج نويهض كان دقيقاً جداً، وساعدني في التعرف إلى الأوساط الأدبية. وفي تلك الفترة أسسنا "جمعية المثقفين العرب" وأصدرنا مجلة "الغد" في سنة ١٩٤٠. في الحرب العالمية الثانية كنا سذّجاً جداً؛ فإن كان المذيع تقدمياً يبدأ النشرة بأخبار الجبهة الشرقية، وإذا كان غير تقدمي يبدأ أخبار الحرب من الجبهة الغربية... هذا هو الفارق. كانت الأخبار تقدم باللغة الإنجليزية، وكنا نترجمها ونحررها ونرتبها. وقد أصبحت مسؤولاً عن القسم الأدبي المكلّف قبول المسرحيات أو عدم قبولها. وكانت تقدم لنا أيضاً قصص للقراءة، فأوافق عليها أو لا أوافق.

■ **وفي تلك الفترة قدمت الاذاعة كتّاباً مصريين، أَليس كذلك؟**

□ كلا. الكُتّاب المصريون كانوا يذهبون إلى

إذاعة الشرق الأدنى،[1] أمثال عباس محمود العقّاد وغيره. وفي شباط / فبراير ١٩٤٢، في ذكرى مرور ٢٥ عاماً على تأسيس الجيش الأحمر، قرر الحزب الشيوعي أن نظهر علناً بعدما أطلقت بريطانيا سراح الشيوعيين المعتقلين وبينهم رضوان الحلو.[2] واتخذ الحزب بالفعل قراراً بالتجمهر في مقهى البيكاديللي في القدس، وألقينا خطاباً مع عبدالله البنا وآخر اسمه "جعفر". ثم جمعنا الخطبتين في كرّاس واحد ورحنا نوزعه سراً. فاستدعاني مدير المطبوعات الإنجليزي في ذلك الوقت، وقال لي إن توزيع الكرّاس ممنوع. فقلت له أنني أشارك في المجهود الحربي. فقال: عملك في الإذاعة هو مجهود حربي، وطلب مني التراجع عن هذا الأمر. فأجبته: هل ستطردني لأنني ساهمت في المعركة ضد الفاشية؟ فأجاب: يوجد قوانين. ثم سألني هل ستتراجع؟ فأجبته: لن أتراجع. صحيح أن مدير المطبوعات لم يطردني، لكنه نغّص حياتي، الأمر الذي أرغمني على الاستقالة، فأصبحت سكرتير فرع الحزب الشيوعي في حيفا. ومنذ ذلك الوقت وأنا محترف سياسة، أي متفرغ للعمل السياسي.

■ **هل كان اسم حزبكم قبل سنة ١٩٤٨ "الحزب الشيوعي الفلسطيني"؟**

□ نعم. لكن في سنة ١٩٤٣ انقسم الحزب بين العرب واليهود، وأنا أتحمل، إلى حد ما، مسؤولية هذا الانقسام. وقد حدث الانقسام لأسباب عميقة. أمّا السبب المباشر فهو أننا كنا نسعى لتنظيم إضراب للعمال للمطالبة بزيادة الأجور، وهو إضراب مشترك للعمال العرب واليهود. العمال العرب كانوا منتسبين إلى "مؤتمر العمال العرب"، بينما كان العمال اليهود منتسبين إلى جمعية "الهستدروت".[3] وكان هناك أيضاً جمعية العمال العربية الفلسطينية، وكانت متأثرة بالمواقف القومية الفلسطينية. التآمر الأساسي جاء من "الهستدروت"، فقد أعلن "الهستدروت" فجأة الإضراب من دون التشاور مع أحد. العمال الشيوعيون اليهود كانوا يطالبون بالإضراب، ونحن في جمعية العمال العرب كنا نطالب بالإضراب المشترك، فلمّا أعلن "الهستدروت" الإضراب من جانب واحد، لم يتمكن العمال الشيوعيون اليهود من وقف الإضراب، إذ كانوا يلحّون منذ أكثر من عام على "الهستدروت" لإعلان الإضراب، وصاروا لا يستطيعون أن يقولوا لا للإضراب حتى بذريعة عدم مشاركة جمعية العمال العرب. ومن هنا نشأت الخلافات التي تعمقت بعد ذلك، واشترك في المعركة الرفيق المرحوم "حمدي"،[4] وكان زار الاتحاد السوفياتي في زمن لينين وشارك في تأسيس "الكومنتيرن".[5] اليهود ما عادوا مجرد أفراد، بل أصبحوا أيضاً أمة في طور النشوء في فلسطين، وأنا أصدرت بياناً باسم الحزب الشيوعي الفلسطيني في حيفا، فطُردت من منظمة القدس ومن منظمة تل أبيب، وكنت في الحادية والعشرين، لأنني قلت فيه إن الحزب الشيوعي الفلسطيني هو حزب عربي، واليهود انضموا اليه كأفراد. بعد ذلك أسسنا عصبة التحرر الوطني[6] في سنة ١٩٤٤، وبدأنا نعيد العلاقة مع الشيوعيين اليهود، ووضعنا برنامجاً للحركة الوطنية الفلسطينية ينص على إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية مستقلة تضمن حقوق الأقلية القومية اليهودية. وكنّا في صراع عنيف ضد مواقف الحركة الوطنية الفلسطينية التي أبت أن تعترف باليهود كأمّة إلاّ مَن كان يقيم في فلسطين في سنة ١٩١٧، ومَن جاء بعد ذلك عليه أن يرحل.

في تلك الأثناء، أي في ١٩٤٤/٥/١٤ أصدرنا جريدة "الاتحاد"، وكنت أنا أول رئيس تحرير لها. وكتبت الافتتاحية المشهورة: "أمّا الزبد فيذهب جفاء، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض". كانت جريدة "الاتحاد" قليلة عدد الصفحات، ومع ذلك انتشرت انتشاراً واسعاً في أواخر أيام الانتداب البريطاني، وكنّا نبيع ١٢,٠٠٠ نسخة. وحاولت الحركة الوطنية الفلسطينية بعد قرار التقسيم مصادرة الجريدة، فقد كانت الجريدة الوحيدة التي تدعو إلى الاتفاق مع اليهود وإلى قبول قرار التقسيم، وكنّا نقول، منذ ذلك الوقت، إن هذا الحل يوفر على شعبنا الكارثة، ونحن نختار أهون الشرّين.

إنني أتحمل تاريخياً مسؤولية هذا الموقف، وأنا أعتز به. لكن الحكومة البريطانية أوقفت من دون جميع الصحف العربية جريدة "الاتحاد" في آخر أيامها، وسحبت الرخصة منها بحجة أننا نثير الاضطرابات، بينما كنّا الجريدة الوحيدة التي تدعو إلى الهدوء. في تلك الأثناء بدأت أنشر قصصاً قصيرة في "الاتحاد"، وكنت أسكن في رام الله. ولمّا اضطررت إلى مغادرة رام الله، خبأت كتبي الماركسية ومقالاتي ورواياتي وقصصي في صندوق من التنك، وحفرت له حفرة في أرض أحد الأنسباء، على أمل بأن تهدأ الحال وأعود. ولم أتمكن من العودة إلاّ بعد سنة ١٩٦٧، فعدتُ لأبحث عن الصندوق، فوجدت مبنى من ثلاث طبقات قد بني فوق تلك الأرض. لقد فقدت عدداً من القصص التي كنت أعتز بها.

■ **ألا توجد نسخ منها؟**

□ نعم توجد نسخ لبعضها. في ذلك الوقت أعدت نشر رواية "فندق الملك داود" في مجلة "الطريق" وأنا في بيروت.

خالد بكداش ورئيف خوري ومارون عبود

■ **في أي سنة كان ذلك؟**

□ لا أذكر تماماً. علاقاتنا بالحزب الشيوعي في لبنان قديمة من خلال المرحوم رئيف خوري الذي كان يعيش في القدس، وأيضاً عبر نقولا شاوي الذي كان يتردد إلى فلسطين في مهمات حزبية. فمنذ ذلك الوقت، حين كانت الخلافات تندلع في داخل حزبنا، كنا نسافر إلى لبنان ثم إلى سورية تهريباً عبر الجبال كي نتشاور مع خالد بكداش الذي كان يقف ضد أي انحراف قومي. مثلاً، عرضنا عليه أن نؤسس حزباً عربياً فرفض هذه الفكرة. أحببنا خالد بكداش حباً جماً، فهو الذي ترجم إلى العربية البيان الشيوعي.[٧]

■ **هل إن طبعة موسكو من البيان هي نفسها التي ترجمها خالد بكداش وظهرت في سنة ١٩٣٣؟**

□ نعم. وأود أن أضيف هنا أن بعض فقرات البيان الشيوعي تُرجمت ترجمة غير صحيحة، كالقول: ليس للعمال وطن. أعتقد أن هذا الخطأ وقع فيه ماركس أساساً.

■ **خطأ في النص، أم لأن ماركس لم يكن**

لديه بلد؟

□ لا أعرف. هنا أعرِّج على رواية "سعيد أبي النحس المتشائل" التي تتضمن حكاية الذهاب إلى لبنان. هذه تجربتي في الذهاب إلى بيروت ثم إلى الشام.

■ **الرواية التي فيها الحمار؟**

□ كلا.

■ **الحمار الذي وقع؟**

□ هذا كان خيالاً.

■ **ذهبت إلى بيروت وهناك رحت تحدق في النساء كأنك لم ترَ نسوة في حيفا.**

□ نعم. هذا الوصف هو تجربتي.

■ **هل ذهبت إلى بيروت لإحضار السلاح؟**

□ نحن لم نذهب لإحضار السلاح بل لنتشاور مع خالد بكداش.

■ **رفاقك ذهبوا لإحضار السلاح، بحسب بعض الروايات، وأُعجبوا بالنساء الجميلات، فأنفقوا المال وعادوا من دون السلاح؟**

□ لم نذهب خلف النساء، هذه اختراعات. سافرت عدة مرات إلى بيروت، وتعرفنا إلى عدد من الأشخاص في الأوساط الثقافية، وأمضينا وقتاً لا بأس به مع مارون عبود.

■ **هلاّ حدثتنا عن لقائك مارون عبود؟**

□ لا نستطيع أن ننسى فضل رئيف خوري بتعريفنا إلى الشيوعية وتشجيعنا على الانخراط فيها. لكن رئيف خوري طُرد من الحزب الشيوعي في لبنان في سنة ١٩٤٨، لأن المواقف التي أتبنّاها الآن تبنّاها رئيف خوري في سنة ١٩٤٨.

■ **ما انطباعك عن مارون عبود؟**

□ كنا نجلس على قارعة الطريق ونتكلم. هو يتكلم ونحن نضحك. كنا نحترمه جداً. هو إنسان متواضع.

السخرية ضد التسلط

■ **هل هناك مَن أثّر فيكم من المدرسة الأدبية اللبنانية؟**

□ طبعاً، وخصوصاً كتابات مارون عبود، ولا سيما الروح الساخرة التي تعتمد على الألفاظ وعلى اللغة.

■ **أنت طورتها؟**

□ أنا أخذتها من مارون عبود.

■ **ماذا عن الشخصيات الشعبية؟**

□ إذا أردت أن أتكلم على المؤثرات، فقد تأثرت بالروح الساخرة لدى الجاحظ. وقد تنبّه إلى ذلك النقاد اليهود أولاً. ومثال ذلك قصتي عن لص اسمه "السروجي"، فقد

جاءت لغتها صعبة جداً، لكن فيها فكاهة وتوازن في الكلمات. وكنت انتبهت منذ زمن طويل إلى تيار لم يتوقف في تراثنا الثقافي الأدبي هو التيار الساخر، وأنا أعتقد أن هذا التيار هو الذي استطاع أن يستمر على الرغم من جميع المآسي، وعلى الرغم من اضطهاد السلطة. الأدب الساخر هو الذي استطاع أن يواصل الحياة.

■ **هل تقصد أن ما تبقّى من الأدب هو أدب سلطوي؟**

□ تقريباً. قرأت "دو كاميرون" لبوكاشيو[٨] فأخذت منه الأسلوب. "دو كاميرون" عبارة عن عشر قصص تروى في عشرة أيام، عن أناس اعتزلوا الحياة في إيطاليا بعدما انتشر وباء الطاعون، وسكنوا في قصر أحدهم. هم عشرة أشخاص اتفقوا على أن يحكي كل شخص قصة في كل يوم. وكانت القصة العاشرة هي القصة الساخرة أو من "الزنار ونازل". السخرية هي النقد، والدور الذي تقوم به يشبه دور الشاعر، أي التحريض المباشر وتحطيم الأصنام. حين أبرهن للجمهور المضطهد أن حاكمه ليس إلهاً ولا صنماً، يمكن حينذاك إنزاله عن عرشه. وأنا أعتقد أن التيار الساخر في تراثنا هو تيار عريق جداً. ومن أجل احتمال هذه الحياة التي لا تُحتمل، نحن بأمسّ الحاجة إلى السخرية من الحاكم ومن أنفسنا معاً.

البدايات وقلق المبدع

■ **بدأتَ سياسياً، ثم انهمكت بقوة في الكتابة السياسية والسجالات، ثم عُرفت أديباً، وعلى مدى نصف قرن امتزج في ذهن القارئ، إميل حبيبي السياسي بإميل حبيبي المبدع والأديب والناقد الأدبي، أي أنك حملت بطيخات عدة معاً. ما دوافع قرارك اليوم الاكتفاء ببطيخة واحدة؟**

□ في المدة الأخيرة، وبعد الزلزال الذي ضرب العالم الذي كنت أنتمي اليه، أي العالم الاشتراكي،[٩] وهو زلزال ضرب المسلمات الفكرية التي كنت أعتنقها، رأيت أن من واجبي الأخلاقي أن أجري مراجعة لمسيرتي الفكرية كلها، ولم يكن الأمر سهلاً بعد هذا العمر الطويل. وقد عبّرت عن هذه المراجعة في روايتي الأخيرة "خرافية سرايا بنت الغول"،[١٠] التي حين بدأتُ بكتابتها أردت أن أختار لها اسماً غير روائي مثل "مسيرة فكر". وطبعاً لا توجد مسيرة فكر منقطعة ومنعزلة عن الحياة المادية نفسها، فبدأت بالمراجعة، وهي مراجعة حياتي نفسها، وأقول أنني كنت أتطلع إلى جواب عن السؤال التالي: أين أخطأت؟

ما جذبني إلى الحركة الشيوعية وإلى الفكر الشيوعي هو أن تلك الأفكار كانت أماني لأي شاب، أي حب العدالة. والعدالة هي الاطمئنان والسلام النفسي، وأهم من ذلك كله قول الصدق. الإنسان، وخصوصاً في بداية تعرّفه إلى ذاته، يبقى مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بعقلية الطفل. والطفل في بداية حياته لا يعرف الكذب، لأن الكذب يتسرب اليه بالتدريج. وأهم من ذلك أن

في إمكان الطفل أن يكتشف الكذب فوراً باعتباره انحرافاً عن الصدق الطبيعي. وفي أي حال كنت منذ بداية حياتي أبحث عن أحوال تمكّنني من قول الصدق. وفي بداية مراجعتي لتاريخي الفكري سألت نفسي: أين بدأ الانحراف عن هذه الأماني؟ جسّدتها في صورة الفتاة التي أحبّها بطل الرواية وسميتها "سرايا". فلماذا اخترت هذا الاسم؟ في البداية كانت الأسماء تتغير. ومَن قرأ روايتي يعرف أن شيخاً في مثل عمري يظهر له فجأة طيف حبه الأول، ويبدأ بالتذكر. حتى لو كان صحيحاً أن هناك حباً أول، لكنه ينسى هذا الحب إلى درجة أنه ما عاد يذكر ملامح المحبوب، ومَن هو. لذلك راح يتساءل: مَن هو، وما هي مميزاته، وكيف التقاه، وكيف أهمله، وكيف انقطع عنه، وكيف ضاع منه؟

بقيتُ أبحث عن أجوبة عن هذه الأسئلة من دون جواب حتى الصفحات الأخيرة. وفي هذه الصفحات الأخيرة اهتديت إلى عنوان الرواية التي ظهرت به، أي "سرايا بنت الغول". سرايا بنت الغول إذاً هي حكاية فلسطينية، وربما هي حكاية من المنطقة التي تضم أيضاً لبنان وسورية أو "سورية الطبيعية". ومع الأسف وجدت أن كثيرين من أبناء اليوم لا يعرفونها. "سرايا بنت الغول" هي فتاة قروية جميلة لم يمس المقص شعرها، وكانت فضولية، تذهب إلى الغابات والوديان تبحث عن الزهور وعن أعشاش الطيور، وكان هناك غول يراقبها، ثم أحبها. ويبدو أن الناس في القرية كانوا يعرفون أمور هذا الحب، لهذا صارت الفتاة تُسمى "سرايا بنت الغول". وفي يوم من الأيام، خطبها الغول وبنى لها قصراً من الذهب والبلور وحبسها فيه. وكان لها ابن عم في مثل عمرها يحبها أيضاً. فراح يجول في الوديان وفي الجبال يبحث عنها وينادي: "سرايا بنت الغول دَلّيلي شعرك لأطول."[١١] وظل يبحث عنها حتى سمعته في أحد الأيام، فدلّت له جديلة شعرها، فتمسّك بها وصعد إليها في القصر وأنقذها. ويتساءل النقاد: مَن هو الغول؟ أمّا أنا فأردت أن أصوِّر تلك القوى والدوافع التي جعلتني أنسى سراياي وأهملها. وكما قال النقاد، فإنه لا يحق لي ككاتب أن أفسِّر، ولا يجوز أن أتمادى في تفسير ما كتبت.

■ مَن هو الغول حقاً؟ ومَن هي سرايا؟

□ هناك مَن يقول إن فلسطين هي سرايا، وهناك مَن يقول إن الغول هو هموم الحياة اليومية، والسعي وراء الرزق. وهناك مَن يقول إن الغول هو ضرورات العمل السياسي، وخصوصاً ضرورات الكذب في العمل السياسي. وأنا أجيب أن هذه الأمور كلها هي الغول. ولكن الأهم هو أنني كنت طوال هذا الزمن أبحث عن ذاتي وعن نفسي، وتبين لي، بالتدريج، أنني أقنعت نفسي بأن العمل السياسي يَفرض على السياسي أحياناً ألاّ يقول الصدق. وكنا تعلمنا أن لينين، بحسب ما نُقل على لسان ستالين، وهو نقل مشوه، قابل سفير فنلندا الذي جاء يطلب استقلال فنلندا عن روسيا، واضطر لينين إلى مصافحته، بينما، في العمق، لو كان لدى لينين مسدس لرفعه وأطلق الرصاص على السفير، ولو كان لدى السفير مسدس لأطلق الرصاص على لينين. وقد أقنعت نفسي بأن هذا التصرف هو شكل من أشكال النبوغ. ومع الوقت صرنا نحن الشيوعيين نوعاً من الماكيافلّيين، وربما أقنعنا أنفسنا بأن الماكيافلّية هي "الغاية التي تبرر الوسيلة"، وأن ماكيافلّيتنا هي ماكيافلّية رائدة وسامية.

■ **كيف كنتم تبررون هذا الأمر؟**

□ بدأنا نقول إن تحرير الشعوب هو مصلحة عليا، وفي سبيله يجوز ارتكاب الموبقات كلها. وفي أول "طلعتنا" كنّا نتباهى بأن ستالين سرق مصرفاً حتى يجد مالاً للحركة الثورية السرية. ومنذ أن بدأنا اختيار هذا المنحدر انحدرنا أكثر فأكثر، ووصلنا إلى النتيجة التالية: بما أن الثورة هي المصلحة العليا، فالحزب الذي هو أداة الثورة هو المصلحة العليا أيضاً. وفي البلاد التي وصلت فيها الأحزاب الشيوعية إلى السلطة، كان في إمكانها أن ترتكب الجرائم في سبيل الثورة. وفي البلاد التي لم تصل الأحزاب الشيوعية فيها إلى السلطة ارتُكبت الموبقات، وخصوصاً في العلاقات الداخلية. ونحن حين ينحرف أحد أعضاء الحزب عن الخط العام كنّا، لو استطعنا، أعدمناه. لكننا كنّا نُجوِّعه ونعذّبه اجتماعياً. وأنا من خلال هذه المسيرة اعترف بأني كنت مقتنعاً بضرورتها، وكنت بين الحين والآخر أشعر بالاختناق ضميرياً؛ الاختناق النفسي بسبب القيود التي فرضناها على أنفسنا. أنا امتلكت متنفساً للاستمرار هو ملكة الإبداع الفني والأدبي، وأدركت أن عملي الفني لن يستحق البقاء إلاّ إذا كان قادراً على قول الصدق. ومع أني حاولت في رواياتي أن أراقب نفسي كي لا أجرؤ على قول الصدق حتى في العمل الفني، إلاّ إن النقاد المتعمقين كانوا يلاحظون أن لي ما يُسمى "شطحات"، وأنني أشطح بعيداً عن الخط العام للحزب. وها هم رفاقي السابقون يهاجمونني ويريدون أن يحمّلوني مسؤولية جميع الأخطاء التنظيمية التي ارتكبناها. أنا لا أهرب من مسؤوليتي ومن مشاركتي في المسؤولية، لكنني تميزت عنهم في أمرين: الأول، أنني اعترفت بأنني شاركت في المسؤولية، بينما هم لم يعترفوا أو لا يريدون أن يعترفوا؛ الثاني، أنني راجعت كتاباتي الأدبية القديمة وعلى رأسها "المتشائل"،[١٢] ووجدت أنني اكتشفت أسباب المأساة التي نزلت بنا في حرب الخامس من حزيران / يونيو ١٩٦٧، ومنها أن الطليعة وضعت لنفسها قواعد في التعامل الثوري مع الشعب، وحمّلت أعضاءها أعباء سمّيناها ثورية، لا تستطيع عامة الناس أن تتحملها. ومع مرور الوقت صرنا عبئاً على الناس الذين عاملناهم بتعال؛ فإمّا أن يصل الجمهور إلى المستوى الثَّوري في التضحية وعلى رأسها التضحية بالذات، وإمّا أن نتهم هذا الجمهور بالتردد والخوف وعدم الرغبة في الحرية، وهذا ما ذكّرني بتاريخ الحركة الإسماعيلية في التراث الإسلامي.

■ **ما الرابط بين الحركة الإسماعيلية والحزب الشيوعي الإسرائيلي؟**

□ الحركة الإسماعيلية كانت أول حركة في الإسلام تسمّي أعضاءها باسم رفيق. وحتى ربنا سبحانه وتعالى هو الرفيق الأعلى. الإسماعيلية حركة تحررية أممية مؤلفة من قوميات عدة تسكن الإمبراطورية الإسلامية، وهذه الحركة هي التي أخذ عنها الأوروبيون اسم "الحشاشين"[١٣] الذين تميزوا بالطاعة الصارمة جداً، وكان القائد، حين يريد أن يبرهن أنه يمتلك قوة جبارة، يأتي بأحد الأعضاء ويوقفه فوق السور ويقول له: اقذف بنفسك من الأعلى. فلا يتردد الإسماعيلي في قذف نفسه. وهذه الحركة انحدرت مثلما انحدرنا نحن فيما بعد، وصار قادتها يُصَفّون المتردد بينهم، ثم صاروا يتعاملون مع الجمهور، الذي من المفترض أن يدافعوا

عنه، تعاملاً متعالياً، وكانوا يغيرون على الناس العاديين ويذبحونهم عن بكرة أبيهم، لأن الناس ما عادت تحتمل سلوكهم. وحتى اليوم ثمة بعض الشيوعيين في داخل إسرائيل، علاوة على القوميين في الخارج، ما برحوا يتهمون جماهير واسعة من شعبنا بالخيانة، لأنهم صوّتوا لحزب "العمل".[١٤] طيّب! لمَن يصوتون؟ الناس لا تحب المغامرة، والجمهور ليس رعاعاً، وهو يرفض المغامرة.

التحولات والمراجعات

■ **هل ظهرت هذه المراجعة في رواية "المتشائل"؟**

□ قدمت في رواية "المتشائل"، ومن دون أي تخطيط مسبق، أسوأ خلق الله مثالاً للصمود واستيعاب الظلم، ولاستمرار الحياة في أسوأ الأوضاع. وأعتقد أن الذي جعل هذه الرواية ناجحة، وجعل الشعب يألفها، هو أنني خفّفت عنه عبء المستويات غير الأخلاقية التي وضعناها. فمن غير الممكن أن يحمل الشخص الواحد بطيختين في يد واحدة: بطيخة العمل السياسي اليومي والتفرغ السياسي، وبطيخة الإبداع الفردي. وقد توصلت إلى هذه النتيجة بعد عناء شديد ومراجعة. وهذه المراجعة ظهرت في رواية "سرايا بنت الغول". أنا دافعت عن قضية شعبي العادلة بالعمل السياسي، وأنا غير نادم على هذا الخيار. ولو لم أغرق في التفرغ السياسي لكنت أردد قول الشاعر: ولولا الشِّعرُ بالعلماء يُزْري // لكنت اليوم أشعَرَ من لبيد. وهذه ليست مشكلتي وحدي؛ هذه مشكلة جميع شعوب العالم، وكان من الممكن أن يكون أيضاً آخرون أشعر من لبيد لولا حاجات الكفاح السياسي. وكم من ملكة إبداعية كانت ستنمو لولا المذابح التي تقع بين وقت وآخر! كم من ملكة إبداعية ذهبت في مجزرة صبرا وشاتيلا. وأنا أريد أن أسمح لنفسي بما بقي لي من عمر، بأن أعود إلى "سرايا"، وأن أخدم قضية شعبي العادلة في مجال آخر أشد حساسية. وممّا لا شك فيه أن لا طريقة للتطور غير العمل السياسي، لكن العمل السياسي هو مواجهة مع الآخر، مع العدو ومع الخصم. وهذه المواجهة ربما هي الأهم، لكن من شأن هذه المواجهة أن تجعلنا نهمل الذات، أو ما يمكن تسميته الضمير العام، أي ضمير الشعب، والضمير الفردي. صحيح أن ما حدث في العالم الاشتراكي والأحزاب الشيوعية ليس العنصر الوحيد الذي جعلني أفكر في هذه الأمور، بل إن انفجار أزمة الخليج في سنة ١٩٩١ كان له شأن في هذا الأمر أيضاً. وما أذهلني وأشعرني بالمسؤولية أن كثيرين من المثقفين، ومن الناس الطيبين، انحدروا من دون تبصر وراء الخطيّة الأخلاقية؛ خطيّة الموافقة على اعتبار سفّاح الشعب، صدام حسين، رمزاً للتحرر القومي العربي، وكانوا يرون أن القضية الأهم هي الكفاح ضد الغزو الأميركي. وحين كنّا نقول: إن صدام حسين يذبح الأكراد، يكون جوابهم: إن تركيا تذبح الأكراد أيضاً. وهذا يعني أن العنصر الأخلاقي انعدم تماماً. والمذهل أن هذا الأمر حدث للشعب العربي الفلسطيني الذي

لُدغ كثيراً من الجحر نفسه.

■ **مَن المسؤول عن هذا المصير؟**

□ أنا أحمّل القادة السياسيين المسؤولية، وأحمّل نفسي المسؤولية أيضاً، لأنني في مسار كفاحنا السياسي الصعب والعنيد أهملنا ضمير الشعب، وكان يجب أن نحافظ عليه من التلوث. وهذا الإهمال هو نفسه الذي أصابني، وهو "الغول" نفسه الذي اختطفني من "سرايايّ"، وهو تغليب مصلحة عليا على مصلحة دنيا، وهذا الربط غير أخلاقي. فإذا كان لا بد للسياسة من مثل هذا الربط، كان لا بد من وجود قلّة لا ترضى عنه، بل تقاومه كي تُبقي ضمير الشعب مشتعلاً. وفي النهاية أقول: ربما كنا أقل "الماكيافلّيين" ماكيافلّية، لكننا في المقابل وضعنا أسمى الأهداف الاجتماعية في الحضيض. وكان هذا نقصاً يبدو لي فادحاً وقاتلاً.

■ **عندما تختار الجانب الثقافي وحده من دون الجانب السياسي، فهل معنى ذلك أنك تبرئ الثقافي ضمناً ممّا وصفته بالجرائم لدى الجانب السياسي؟ هل يمكن الفصل بين الاثنين، وخصوصاً لدى إميل حبيبي المعجون بالسياسة والثقافة معاً، وأنت من الكتّاب القليلين الذين جعلوا الهمّ السياسي شأناً ثقافياً في داخل العمل الأدبي؟ إذاً بأي ذريعة تعطي لنفسك الحق في اللجوء إلى الثقافة هرباً من دنس السياسة؟ إن اختيارك هذا يغذي المقولة التي تقول إن الثقافي طاهر والسياسي دنس، وبالتالي عدنا إلى الأبيض والأسود. لا يمكن الفصل بين الثقافي والسياسي، فالإثنان مرتبطان. إنها مقولة سيئة تلك التي تزعم أن السياسي دنس والمطلوب تطهير الثقافي. لا، يجب أن نطهّر الاثنين، وبالتالي فإن البطيختين مهمتان.**

□ بعد وصولي إلى هذه النتيجة جابهت ما تعلمته؛ واجهت محاولات فصل الثقافي عن السياسي، وانخرطت في معركة ضد هذا التفكير غير النزيه، أو كما قال لي أحدهم: يريد أن يحافظ على خط الرجعة، وأن تدور معركة عنيفة في داخل الضمير الوطني الفلسطيني، كي نعود ونقف الموقف الذي اضطررنا معه إلى إجراء مصالحة تاريخية مع العدو الإسرائيلي، حفاظاً على شعبنا. ولمنع كوارث جديدة عن شعبنا، فإن ثمة أشخاصاً سياسيين ومبدعين غير مستعدين لأن يدفعوا الثمن، وهم يحلّقون ويريدون أن يستمروا في التحليق كالملائكة، وكل ما يريدونه هو ألاّ يُلصق بهم ما يعتبرونه وسخاً وعاراً، أو إنهم لا يؤمنون بهذه الطريق ويجلسون على السياج منتظرين الفشل، بحيث يكونون بين أولئك الذين يرسمون خط الرجعة. هؤلاء أشخاص أشد تلوناً من الحرباء وأسوأ أخلاقاً من الأفعى. يتحدثون عن فصل الثقافي عن السياسي، لكنهم يريدون أن يحمّلوا غيرهم المسؤولية. وفي جميع الأحوال، في حالة الفشل، يقعدون كما كانت عجائزنا يقعدن بالقرب من الفرن، وتقول الواحدة للأُخرى: "مش قلتلك؟" أنا هنا أتحدث عن مجال آخر مختلف. أنا الذي استيقظت على الثورة التي أراد ميخائيل غورباتشوف أن يقوم بها.[١٥] غورباتشوف قال لي مباشرة في سنة ١٩٨٥، إن الأوان حان لإزالة الفصل بين السياسة والأخلاق، وكي تكون السياسة أخلاقية، وهذا هو الذي نبّهني إلى مسيرتي كلها؛ نبّهني إلى أين أخطأت. ثم أنا لست ساذجاً لأعتقد أن في إمكان الإنسان،

أي إنسان، وخصوصاً إذا كان مثقفاً، أن يستلّ نفسه من السياسة كما تُسلّ الشعرة من العجين. هذا محال، وأنا لا أدّعي أنني اخترت منطلقاً آخر للعمل السياسي هو منطلق الضمير. هذا كلام سفسطائي هرقلي، لكنني أحاول انتقاد نواقصنا. ولا أعتبر المبدعين العرب أو مبدعي العالم الثالث هم المسؤولون الأساسيون عن هذا النقص، إنما أحمّل عدوّكم المسؤولية، ولا سيما أن المجال المعطى في أوروبا او في أميركا، وأقصد الفسحة الديمقراطية الدستورية الحقوقية، غير ممنوحة لنا. ومع ذلك أعتقد أن شعبنا مثل بقية الشعوب يحتاج في مواجهة أعدائه إلى أولئك القادرين على الإشارة إلى النواقص الذاتية. وهذه المهمة من أصعب المهمات. أذكر أنني اشتركت مع إدوارد سعيد في ندوة في لندن، وكان الحديث يدور على التسامح وعدم التسامح. وقد هاجمت ظاهرة عدم التسامح في أوساطنا، ووضعت المسؤولية على نفسي وعلى الحركة التي انتسبت إليها، لأننا لم نتنبه إلى محاربة غيلان عدم التسامح، وإنما نمّينا في داخلنا ظاهرة عدم التسامح، ووقف إدوارد سعيد، وهو يحبني وفي معظم كتاباته يذكرني، وأبدى انتقاداً غير مباشر لما اعتقدَه من أنني أقوم بنشر غسيلنا الوسخ أمام الآخرين. إنها فكرة عادلة تلك التي أبداها إدوارد سعيد، لكن ليس "كل ما دق الكوز بالجرة" تقول لي: لا تذكر مثالبنا أمام الآخرين. وهناك مَن لا يتورع عن القول: ليس الآن وقت مثل هذا الكلام. في كل يوم ستجد مَن يقول "ليس وقته". أنا أعتقد أن من دلائل حيوية شعب من الشعوب أن ينشر مفكرو هذا الشعب ما يسمى "الغسيل الوسخ" أمام الآخرين، وإلاّ كيف تريد من الإنجليز الذين ينتقدون أقدس مقدساتهم أن يحترموننا؟ أنا أشتغل بالسياسة، ولكني لست محترفاً سياسياً. ومن منطلق المحافظة على ضمير الشعب من التلوث، أُبقي هذا الضمير مشتعلاً بقدر ما أستطيع.

واسمح لي بأن أعود إلى رواية "سرايا بنت الغول". في نهاية الرواية، هناك شيخان في مثل عمري يتناقشان. واحد يسأل الآخر: ما رأيك بشجرة إجاص تحمل باذنجاناً! ويبرر هذا الأمر بأن الباذنجان ضروري أكثر لإطعام الفقراء. فيجيبه الثاني: لكن ليس مصادفة أن شجرة الإجاص موجودة. الباذنجان أهم للحياة، لكن الأجاص ضروري أيضاً. أنا لا أفصل السياسي عن الثقافي. وقد كتبت مقالة رداً على "بلاغ سياسي لمثقف عربي"، جاء فيها أن في القضية الفلسطينية يجب أن يكون السياسي مثقفاً والمثقف سياسياً، لأنها قضية سياسية واقتصادية ووجودية وحياتية وثقافية؛ قضية تجمّعت فيها مختلف المعارك على جميع الصُّعد.

■ كيف أعدت النظر في تجربتك الإبداعية بعدما أعدت النظر في تجربتك السياسية؟ وما هي ملاحظاتك على هذه التجربة قبل أن تكتب رواية "سرايا بنت الغول"؟

□ أود أن أعود لأؤكد أنني أجريت مراجعة لمواقفي السياسية. أنا واحد من الناس الذين لا ضرورة لأن يجري أي تغيير في مواقفه السياسية، لأن الأحداث أثبتت أن مواقفه السياسية الأولى هي المواقف التي كان من الممكن أن توفر على شعبنا كثيراً من النكبات. أنا ألاحظ أن بعض مَن يكرهني يحاول أن يخلط الأوراق. تستطيع أن تسأل السؤال التالي: لو قُيّض لك أن تبدأ من جديد، هل كنت ستنصرف إلى

النشاط الثقافي وحده؟ نعم. ربما كنت سأركز على النشاط الثقافي. فقد وجدت أني كنت في العمل السياسي ساذجاً سذاجة المبدع، لأنني في بداية حياتي كنت أود أن أحافظ على الصدق، وعلى الصدق الطفولي. وهذا هو الذي جعلني، علاوة على نشأتي الدينية، أرى الإنسان حتى في عدوي، وأرى أن الإنسان خُلق على صورة خالقه. دائماً أبحث عن الحَسَن، وعندما أُصاب بخيبة أمل لا أصدق أن من الممكن أن يكون الإنسان على هذا النحو. حتى اليوم أنا لست قادراً على أن أتحمل كيف كان من الممكن أن تحدث مجزرة كفر قاسم.[١٦] حتى اليوم أنا أقول لليهود كيف يجرؤ شاب يهودي على أن يصوب سلاحه أو بندقيته إلى طفل ويطلق الرصاص عليه. في الليلة نفسها التي وقعت فيها مجزرة كفر قاسم كنت مختبئاً. وفي بداية حرب ١٩٥٦، أي العدوان الثلاثي على مصر، جاءني صديق يهودي، وكانت مجزرة كفر قاسم قد وقعت، فقلت له: أنت تريد أن تستفزني. وحتى اليوم لا أزال أفاجأ بمواقف كثير من الناس الذين أعتبرهم أصدقاء وقدمت لهم كل ما أستطيع من العون المعنوي، وأكثر من مرة وجدت نفسي أعيد قول الشاعر: أُعلِّمه الرماية كل يوم // فلمّا اشتد ساعده رماني.

كنت قادراً على تقديم أعمال أكثر ممّا كتب لبيد من أشعار. وقد وجدت نفسي منقطعاً عن مكاسب الإبداع الفني والمكانة العالمية. ربما ساعدني هذا الأمر على الاطلاع الدائم على تراث العرب، ولو كان لدي الوقت الكافي لأتابع منجزات الإبداع العالمي لكنت اغتنيت. وأكثر ما أضعته بسبب همومي السياسية اليومية أو الاحتراف الحزبي، هو أنني لم أتابع مكاسب العلم، بينما ألتهم اليوم مكاسب العلم كعلم الفضاء وعلم الكمبيوتر. فعلى سبيل المثال، أصبحت بعد الزلزال الذي ضرب الحركة الشيوعية، أفتش عن كتب قديمة موجودة في مكتبتي منذ سنة ١٩٣٤، ومنها كتاب "تاريخ الفلسفة ومبادئ الفلسفة" لهربرت سبنسر الذي لم أكن قرأته ولا مرة. وفي هذا السياق اكتشفت أن قضية التعددية هي قانون التقدم الذي اكتشفه هربرت سبنسر منذ سنة ١٩٠٨. الخلية الأولى عندما تتطور تنقسم. دليل التطور هو التعددية، وليس هناك تطور إلاّ كانت التعددية مضمونه. ما الذي جعلنا حتى نهاية القرن العشرين، نحن الماركسيين لا اللينينيين، ننتبه إلى التعددية؟ كنا نتخوف مثل تخوف أجدادنا من الراديو. أنا أذكر أنني قلت لجدي، حين أحضرتُ جهاز راديو في حيفا وكنّا من أوائل الذين اقتنوه: تعال لأُسمعك ما لم تسمعه. فقال: من أين لك هذا؟ قلت: من مصر. فضربني بعصاه وقال لي إنني أضحك منه. لم يقدر أن يفهم هذا الشيء الجديد، واعتقد أنني أسخر منه، وقال: "يا عيب الشوم". ومثل المكتشفات الأخيرة للعلم فإن القانون الأساسي للطبيعة هو الصدق، وهو القانون الأساسي للكون كله. الخلية تتألف من ذات، والذرة تتألف من نواة، والنواة تتألف من أجزاء، وفي هذه الأجزاء ملايين من الأجزاء تدور حول محور.

■ **ما هو القانون الذي يقرر دورانها؟**

□ المصادفة. النواة الصغيرة تصطدم بحائط الذرة فترتد. ويوجد ملايين الذرات تصطدم وتتصادم وترتد. لا يوجد قانون يربطها إلاّ قانون المصادفة. أنا في رواية "سرايا بنت الغول" قلت أنني أضعت حياتي في دراسة علم الفلسفة فأضعت العلم. وهذا الذي أتكلم عليه هو فلسفة العلم. أنا نادم على النقص في عملي الأدبي والإبداعي.

الخلاف مع الحزب وغدر الرفاق

■ نحن الآن أمام ظاهرة عامة هي ظاهرة إعادة النظر، وهي ظاهرة تغمر الأجيال الجديدة كلها. الآن، ما هو مدى مراجعتك لنفسك كي تمنح الثقة للأجيال الجديدة؟ ثم أنت هوجمت في جريدة "الاتحاد" وأرسلت رداً على الهجوم الذي بادر إليه أحد كتّاب "الاتحاد". وكان مدير تحرير "الاتحاد" هو الذي هاجمك ورفض أن ينشر ردك عليه، مع أنك كنت طوال فترة مديدة في القيادة السياسية وفي موقع المسؤولية عن "الاتحاد". فهل كنت ستنشر رداً مثل هذا الرد لو ورد إليك في فترة مسؤوليتك، أو خلال أزمة صليبا خميس مثلاً؟[١٧]

□ هذا سلوك ثَبُت خطأه، وثبت أنه أحد الأسباب التي أدت إلى المأساة والانهيار. الأكثرية الساحقة في الأحزاب الشيوعية تخلصت من هذا الخطأ. واستمرار هذا الخطأ في الحزب الشيوعي الإسرائيلي أمر مذهل. والمذهل أيضاً القول إنني لو كنت في موقع المسؤولية كنت سأفعل الأمر نفسه. لقد كنت مسؤولاً في عهد مضى، واليوم كل شيء تغير، ومصيبتي في الحزب الشيوعي هي أنني لم أُعطَ ما أُعطيَ غيري في الأحزاب الشيوعية كي أقوم بالإصلاحات الضرورية. هناك مَن يلومني على أنني لم أكن صبوراً لأستمر في القيادة. لكنني عوملت ـ وليكن هذا الأمر مفهوماً ـ مثلما كان يتعامل ركاب السفينة في "زمن مسعود" حين هبّت عاصفة كادت تغرقها. فبحث الركاب عن شخص ربما اعتقدوا أنه السبب في هبوب العاصفة، فوجدوا شيخاً منتحياً، فقالوا: هذا هو سبب العاصفة، وألقوه في اليمّ على أمل أن تهدأ العاصفة، لكن، لا الشيخ غرق، ولا السفينة غرقت.

أنا الوحيد في الحزب الذي تجرأ وقال: أخطأت. وأنا لا أهرب من مسؤوليتي. ومع الأسف الشديد، في أسوأ أوضاع "الستالينية" في داخل حزبنا، لم نتصرف تجاه مَن اعتبرناهم منحرفين آنذاك كما يتصرف هؤلاء الراقصون في العتمة، حتى إنهم اتخذوا قراراً قبل عدة أشهر ينصّ على منع أي مقالة لي في "الاتحاد" مهما يكن مضمونها.

■ مع أنك مؤسس هذه الجريدة؟

□ طبعاً. لقد تلكأت منذ سنة ١٩٨٧ في إصدار كتاب يحتوي ما لم يُنشر من مناقشات ورسائل إلى قيادة الحزب بما فيها الخطاب الذي ألقيته في الاجتماع الأخير للجنة المركزية وقدمت في إثره استقالتي من اللجنة المركزية، علاوة على عدد من الرسائل والمقالات التي نُشرت هنا وهناك ولم تُنشر في جريدة "الاتحاد". وبعد هذا القرار وجدت نفسي في حل من اللياقة. كان بعض الأصدقاء يقول لي: تريث. وبعد أن أُبلغت رسمياً بالقرار الذي يمنعني من نشر أي مقالة في جريدة "الاتحاد"، قررت أن أرسل الكتاب إلى المطبعة، وعنوانه "نحو عالم بلا أقفاص"، وفيه أشبِّه أنفسنا بجماعة من الطير تعيش في قفص، وأحياناً يكون القفص واسعاً، وأحياناً يكون ضيقاً، وأحياناً يكون القفص من ذهب، لكنه في جميع الأحوال قفص. والطيور حين تعيش في القفص لا تستعمل أجنحتها. وفي يوم من الأيام فُتح باب القفص، إمّا بسبب صدأ في الباب، وإمّا جرّاء عفن في الخشب، وخرجت الطيور إلى الحرية، وانقسمت

فريقين: فريق أعمل جناحيه المهملين وأتعب نفسه حتى طار في أرجاء الفضاء الواسع، ورأى الطبيعة بمحاسنها ومساوئها، وأدرك أن لا مهرب له من العيش في أجواء الطبيعة، وفريق ظل يحنّ إلى القفص. والمأساة هي أن هذا الفريق عندما أراد العودة إلى القفص لم يجده. أنا لم أوافق في أي يوم من الأيام على أن المنحرف الذي نطرده من الحزب يجب أن نعزله اجتماعياً، وأن نجوّعه ونجوّع عائلته. بين مفاهيمنا السالفة أن الواحد منّا في الحزب له قيمة اجتماعية بفضل الحزب، وبفضل وجوده في الحزب، أمّا أن يكون للإنسان حضور خاص فهذا مرفوض. أنت موجود ومشهور، ليس لأنك طبيب مشهور، أو أديب مشهور، بل لأن الحزب هو الذي أقامك وهو الذي يزيلك. وهذا التفكير نفسه هو الذي كان سائداً في "زمن مسعود"؛ فقد اعتقدوا أنهم ألقوا المسؤولية في البحر. لم أغرق ولن أغرق. أنا حاولت دائماً، وربما لا أزال أحلم بأن أنقذ هذه الكوادر التي ربيناها. وبكل تواضع أقول إن هذه هي مأساتي، وأنا أشبّه نفسي بمأساة غورباتشوف. مأساة غورباتشوف أنه اعتقد أن في الإمكان إصلاح الحزب من داخله. وقد قال لي بعض زملاء غورباتشوف حين كنت في موسكو في سنة ١٩٨٧ أنهم تسلّموا الحزب، وإذا به سمكة قرش كبيرة رمتها الأمواج على صخور الشاطئ ميتة.

نحن الآن ندخل في عالم جديد. في الماضي لم يكن هناك إرادة للتقدم ولحلّ القضايا السياسية والاجتماعية إلاّ عبر الثورة، ونحن ربما حاربنا بصدق وَهْم الحلول عبر التطور المتدرج، واعتقدت خطأ أن قانون النمو في الطبيعة لا يسري إلاّ بالثورة.

لن أطيل الحديث في هذا الميدان. لكن أقول إن ما كان مستحيلاً في الماضي، أو ما كان غير مجدٍ كأدوات للتغيير، ربما أصبح مجدياً الآن. التطور المتدرج أقل تكلفة. ومع ذلك يأتي بعض شانئيَّ ويقولون: أنت تهرب من السفينة الغارقة. ماذا تريدون مني؟ أن أغرق معها؟ أنا أتذكر الدور الذي أديته في إحياء الأمل بعد نكبة ١٩٤٨. أنا أذكر، وأنتم لا تعرفون ما قمت به؟ إن الجلاء الفلسطيني عن بيروت بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان وحصار بيروت في سنة ١٩٨٢ كان مأساة. واستطعت أن أحافظ على معنويات شعبي هنا. ماذا يريد أصدقائي ورفاقي الأدباء من إصرارهم على أن لا شيء تغير في العالم، وأننا نرجع إلى الوراء، وأن نظام الحرب الباردة كان أفضل من أي نظام جديد؟ إنهم يثبطون عزائم شعبنا، ويصيبونه باليأس. لا أريد أن أذكر اسم أحد الزعماء عندنا، وهو من تلامذتي الذين تحمسوا للحرب على العراق. وعندما بدأ الهجوم الأميركي على العراق توقّع عودة الألوف وعشرات الألوف من الأميركيين إلى بلادهم بالتوابيت. وكان يكتب في كل يوم في جريدة "الاتحاد" مقالة لمناصرة النظام في العراق. وقد كتب مقالة يقول فيها: "ادفنوا أمواتكم وانهضوا". هل كُتب علينا أن ندفن موتانا وننهض من جيل إلى جيل؟

يقول البعض لي: "تربينا على مقالاتك." أنا خائف من أن يقود هؤلاء الأشخاص شعبهم إلى الغرق مع هذه السفينة التي يرفضون أن يتخلوا عنها. نحن دفعنا ثمناً باهظاً، فقد قُضي على الحركة الشيوعية، لكن هذا الثمن لم يذهب هباء، ذلك باننا كسبنا، في المقابل، القضاء على أضخم سور كان يفصلنا عن شعبنا وهو العداء للشيوعيين. اليوم انتهى العداء للشيوعيين، وصار في إمكاننا أن نتعامل مع الناس باحترام متبادل. ويكفي أننا تخلصنا من آفة العداء للشيوعيين التي لوثت حياتنا. لقد قرر بعض الشيوعيين أن النظام العالمي الجديد

هو نظام جورج بوش، وهذا نظام معاد لنا. لكن النظام العالمي الجديد لم يُبنَ بعدً، وهذه ليست أول حرب تنتهي ويبدأ العالم بالتفكير في نظام عالمي جديد. الحرب العالمية الثانية انتهت، وبدأوا يبحثون عن نظام عالمي مختلف. الآن انتهت الحرب الباردة، والأمر الطبيعي أن يبحث العالم عن نظام عالمي جديد، لأن الفراغ لا يصح. النظام العالمي القديم كان قائماً على الصراع بين المعسكرين، وتوازن الرعب هو الذي كان يحكم العلاقات الدولية، وقد زال الآن توازن الرعب. بعض الرفاق يقول إن النظام القديم كان مفيداً لنا، وأنا أقول إن مأساة الشعب العربي الفلسطيني حدثت في ظل الحرب الباردة، ولم يستطع أحد أن يساعدنا. وكان الاتحاد السوفياتي عبئا علينا في كثير من الأمور. لكن ذلك ليس هو القضية. القضية هي أن ضابط العلاقات الدولية، أي توازن الرعب، انتهى إلى ما يشبه الفوضى. فهل لا شأن لنا بذلك، أم نجرب أن نساهم بدور ما في بناء النظام العالمي الذي لن يبنى في عام، أو عامين، أو ربما عشرة أعوام؟

عودة إلى الذاكرة

حلمت طويلاً بأن أكتب مذكراتي، وقلت لنفسي منذ بداية حياتي الفكرية يجب أن أنتبه إلى هذا الأمر، ثم بدأت أكتب مذكراتي اليومية وأخفيها في غرفة البئر في بيتنا التي حولتها إلى مكتب خاص بي، وهي عبارة عن مكان يستعملونه للغسيل. وفي يوم من الأيام اطّلع أحد إخوتي على هذه المذكرات من دون علمي، وفيها أتحدث عن مشاعري الجنسية. وراح شقيقي يلمح لي بأشياء معينة بين الفينة والأخرى، ففهمت أنه قرأ مذكراتي، فمزقتها ومنذ ذلك الوقت لم أكتب مذكرات.

ربما بدأت منذ ذلك الوقت أبحث عن إطار أستطيع فيه أن أقول الصدق. وكنت أتساءل: مَن يحميني إذا قلت الصدق؟ وهذا التساؤل هو أحد الدوافع التي أوصلتني إلى الحركة الشيوعية. أمّا الدافع الثاني فهو خوفي الهستيري من الموت. وفهمت أن من الضروري أن أبحث عن هدف في الحياة أسعى له، أو عن إطار عام يستوعبني كي أنسى هذا الأمر.

هلع الموت

■ **ما علاقتك بالموت؟**

□ أذكر أنني كنت أمشي في شارع عباس في جبل الكرمل وأنزل إلى شاطئ البحر حيث توجد سكة الحديد وأسير حتى منطقة "تل السمك"، وكان السؤال الذي يدور في رأسي هو عن معنى هذه الحياة التي لا يوجد غير الموت في نهايتها. ومنذ البداية اكتشفت أن ما ينسيني الموت هو الحب. ولكن الحب لم يستوعبني على الإطلاق، وإنما استوعبتني الشيوعية.

■ **الشيوعية وحدها التي استوعبتك؟**

□ أنستني الموت. كنت أبحث عن هدف في الحياة، وحين انهارت الحركة الشيوعية، كنت من الشيوعيين القلائل الذين شعروا بأن عالمهم انهار عليهم. كنت أتحطم ذاتياً. الأمر الثاني الذي دفعني مصادفة إلى الكتابة هو ثورة سنة ١٩٣٦. كان لدي صديق نسير معاً في التظاهرات. وكان لدى والد صديقي هذا مكتبة يؤجر فيها الكتب لقاء قرشين في الشهر، ونستطيع أن نستعير ما نشاء من الكتب بشرط ألاّ نأخذ كتاباً جديداً إلاّ إذا أعدنا القديم. وهذه المكتبة أُغلقت أبوابها في أيام الإضراب في سنة ١٩٣٦، لكنها كانت مفتوحة من الخلف على بيت صديقي، ولا يمكن الدخول إليها إلاّ من باب خلفي. وقام صديقي بفتح المكتبة أمامي، وأذكر أنني كنت آخذ الكتاب بعد الظهر فأنهيه في الليل وأعود صباحاً لآخذ كتاباً آخر أقرأه من الصباح إلى ما بعد الظهر ثم أعيده، حتى إن والدتي اعتقدت أنني إنسان مجنون. كان أهلي يلعبون الورق وأنا أقرأ. وأذكر أن إخوتي أشركوني في يوم من الأيام في لعبة الورق، ودخلت علينا الوالدة، ولما شاهدتني ألعب الورق قالت: "الولد عقلْ".

بعد ذلك في أربعَينَيات القرن العشرين بدأت الكتب الماركسية تصل إلينا بالإنجليزية، وكنا نتداولها سراً. وكما ذكرت في رواية "سرايا بنت الغول" خرجنا من سرداب أفلاطون الفلسفي، ولم نعلم أن التاريخ الفلسفي هو الانتقال من سرداب إلى آخر. أنا لا أنسى تأثري بعجاج نويهض الذي فتح أمامي آفاق اللغة العربية، وقبله تأثرت بمعلم اللغة العربية في الثانوية الذي فتح أمامي مغاليق قواعد اللغة العربية، وكنت مبرزاً في الجبر والهندسة، أي في مادة الرياضيات. وتعلمنا العربية في كتاب جبر ضومط.[١٨] ومعلمنا في اللغة العربية الذي ربط بين الرياضيات والقواعد هو الياس حداد والد وديع حداد، وهو الذي قاد خطواتي نحو الكتابة.

وكان عندنا في المدرسة الابتدائية في حيفا، تقي الدين النبهاني الذي كان يعلّم الدين.[١٩] وفي درس الدين ينفصل المسيحيون عن المسلمين، وهو أصرّ على أن يعلمني القرآن، وكان يأخذني وحدي من صف المسيحيين إلى صف المسلمين لأنني كنت متفوقاً في الإنشاء وحفظت قسماً كبيراً من القرآن.

■ **أبو سلام، كيف تتحدث اليوم عن الخوف من الموت؟**

□ حين كنا صغاراً كنا نخاف الموت، وكان ينتابنا رعب هستيري.

■ **هل هزمت هذا الخوف بالإرادة؟**

□ في هذا العمر يأتي الموت بالتدريج. نفقد الاهتمام بالحياة رويداً رويداً حتى نضمحل.

■ **تحدثت عن تقي الدين النبهاني والقرآن، لكنك لم تتحدث عن الكتاب المقدس؟**

□ أرجع إلى القرآن حتى اليوم عندما أريد أن أكتب أي عمل أدبي. أرجع إلى كتابين مع الفارق بينهما طبعاً: القرآن والعقد الفريد.[٢٠] أمّا الكتاب المقدس، أي التوراة، فقد قرأته مرات ومرات في بداية نشأتي، وتخلصت من انتمائي الديني نتيجة التناقضات المضحكة في التوراة. مثلاً يقولون إن ربنا طرد آدم وحواء من الجنة، وأنجبا ولدَين هما قابيل وهابيل، واحد قبر الثاني، والقاتل مَن هو؟ يقال إنه هرب في البراري وتزوج بنات

الناس، أي ناس؟ قصص لوط هذه مزرية جداً.

■ هل اثّر فيك الكتاب المقدس؟ وماذا عن الأناجيل وكتب التراث الإسلامي ونشأتك البروتستانتية؟

□ أنا تخلصت منها كلها. أنا أتحدث عن ذاتي، والذي يولد في عائلة متدينة، تكون أولى معاركه ضد تديّن أهله. أول معركة طفولية هي التمرد على الأهل. وأنا اكتشفت أن المعارك التي كان يشنّها أبنائي عليّ حتى يثبتوا ذاتهم كانت ضد الفكر الشيوعي. والغاية هي تكوين الذات والقول: أنا لست ابنك فحسب، بل إن لي ذاتاً مستقلة أيضاً. ■

المصادر

١ تأسست إذاعة الشرق الأدنى في سنة ١٩٤٣، وكان موقعها في جنين أولاً، ثم نُقلت إلى حي الجبلية في يافا. وفي صيف سنة ١٩٤٧، انتقلت إلى القدس، وكانت تابعة لوزارة الخارجية البريطانية. أمّا فريق العمل في الإذاعة فكان مؤلفاً من محمد الغصين وصبري الشريف وغانم الدجاني وصبحي أبو لغد وأحمد جرار وعبد المجيد أبو لبن وكامل قسطندي ورشاد البيبي ونجاتي صدقي. وعشية حرب ١٩٤٨ انتقلت إلى ليماسول في قبرص. وفي سنة ١٩٥٦ استقال الموظفون العرب جميعهم احتجاجاً على العدوان الثلاثي على مصر، فاندثرت وتفرّق موظفوها في لبنان والعراق.

٢ التحق بالحزب الشيوعي في سنة ١٩٣٥، وهو عامل بناء من يافا. كان اسمه الحركي "موسى". درس في موسكو في سنة ١٩٣٧، وعاد إلى فلسطين في سنة ١٩٣٩، وصار عضواً في اللجنة المركزية للحزب، ورئيس اتحاد العمال في يافا.

٣ "الاتحاد العام للعمال اليهود في أرض إسرائيل" أُسس في ١٩٢٠/١٢/٤.

٤ الاسم الحركي لشيوعي مصري بارز، درس الطب في جامعة "كوتف" السوفياتية، وهي جامعة مخصصة بالطلاب غير الأوروبيين، وكان يطلق عليها اسم "جامعة الشعوب الشرقية"، ولم يُعرف اسمه الحقيقي.

٥ هو التنظيم العالمي للشيوعيين، يُعرف بـ "الأممية الثالثة" التي أسسها لينين بعد انتصار ثورة أكتوبر / تشرين الأول في سنة ١٩١٧. أُلغي الكومنترن في سنة ١٩٤٣ مع دخول الاتحاد السوفياتي الحرب العالمية الثانية. وفي سنة ١٩٤٧ أسست الأحزاب الشيوعية "الكومنفورم" كمؤسسة تنسيقية، وانتهى الكومنفورم مع عقد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في سنة ١٩٥٦.

٦ تأسست في حيفا في خريف سنة ١٩٤٣ غداة خروج الأعضاء العرب من الحزب الشيوعي الفلسطيني. وفي شباط / فبراير ١٩٤٤ صدر أول بيان سياسي عن العصبة. ومن أبرز أعضاء العصبة: توفيق طوبي؛ عبدالله البندك؛ إميل توما؛ إميل حبيبي؛ بولس فرح؛ سعيد قبلان؛ فؤاد نصار؛ منعم جرجورة؛ شفيق بشارة؛ سليم خليف. انتهت العصبة بعد النكبة، وانضم أعضاؤها إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي.

٧ في مؤتمر رابطة الشيوعيين الذي عُقد في لندن في تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٧ جرى تكليف كارل ماركس وفريدريك أنجلز كتابة المبادئ العامة للشيوعيين، على أن تكون هذه المبادئ في صورة برنامج سياسي لهذه الرابطة. وقد صدر البيان (المانيفستو) في ١٨ آذار / مارس ١٨٤٨ بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والدنماركية والفلامنكية. وانتهى البيان بجملة صارت شعار الشيوعيين في جميع الدول وهي: "يا عمّال العالم اتحدوا".

٨ ولد جيوفاني بوكاشيو في إيطاليا في سنة ١٣١٣، وتوفي في سنة ١٣٧٥. أمّا "دو كاميرون" فهي مجموعة قصصية صيغت بلغة نثرية جميلة ورشيقة، ورسم فيها الكاتب مجتمع إيطاليا في ذلك العصر.

٩ المقصود هو سقوط الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٩١، وتفككه إلى جمهوريات مستقلة، وانتهاء عصر "الشيوعية" في موسكو التي ما عادت منذ ذلك التاريخ مركزاً للأحزاب الشيوعية في العالم.

١٠ صدرت عن دار عربسك في حيفا في سنة ١٩٩١.

١١ "دَليلي" أي مُدّي لي، وهي من تدلى.

١٢ صدرت أول مرة في حيفا في سنة ١٩٧٤.

١٣ إحدى فرق الفاطمية النزارية التي افترقت عن الفاطمية المستعلية (البهرة) بعد اغتيال الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله في مصر. وقد اتخذ زعيمها الحسن الصباح مقراً له في قلعة "ألموت" في فارس، ومنها كان يشن هجماته الفدائية على خصومه. وقد اتهم خصوم هذه الفرقة أفرادها بتعاطي الحشيش والأفيون، وهو اتهام ضعيف. وروي أن الصباح جعل قلعة "ألموت" مثل الجنة بحسب وصفها في المرويات الإسلامية، وأنه كان يخدر رجاله، ثم يدخلهم إلى "جنته". وعندما يصحو هؤلاء من أثر المخدر يجدون أنفسهم في جنة حقيقية ملموسة حيث الحوريات والخمر والعسل، فيندفعون إلى الموت كي يعودوا إلى الجنة التي ذاقوا حلاوتها مباشرة. وهي رواية شائعة لكنها ضعيفة أيضاً.

١٤ ظهر حزب العمل الإسرائيلي في سنة ١٩٦٨ من اتحاد حزب "مباي" (حزب عمال أرض إسرائيل) وحزب "أحدوت هَعفودا" (اتحاد العمل) وحزب "رافي" (قائمة عمال إسرائيل). والحزب الأخير أسسه دافيد بن ـ غوريون بعد انشقاقه على مباي في سنة ١٩٦٥، وكان من أركانه موشيه دايان وشمعون بيرس. ويُعتبر حزب العمل من تيارات اليسار الصهيوني التي حكمت إسرائيل منذ تأسيسها في سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٧٧. واشتهر من شخصيات حزب العمل غولدا مئير ويتسحاق رابين وأبا إيبان ويغآل ألون.

١٥ ولد ميخائيل غورباتشوف في سنة ١٩٣١، وأصبح أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفياتي في سنة ١٩٨٥ خلفاً لقسطنطين تشيرنينكو. قاد عملية إصلاحية في آذار / مارس ١٩٨٥ تحت عنوانين: "البيريسترويكا"، أي إعادة البناء، و"الغلاسنوست"، أي الشفافية. وانتهت هذه العملية بانقلاب عسكري في سنة ١٩٩١، فاستقال غورباتشوف، وتولى الحكم بوريس يلتسين. وفي تلك الأثناء كان الاتحاد السوفياتي قد بدأ يتفكك. نال غورباتشوف جائزة نوبل للسلام في سنة ١٩٩٠.

١٦ وقعت مجزرة كفرقاسم في ٢٩ / ١٠ / ١٩٥٦ في إبّان العدوان الثلاثي على مصر، حين فرضت إسرائيل حظر التجول على قرى المثلث ابتداء من الخامسة عصراً. وكان نحو ٤٠٠ من أهالي كفرقاسم يعملون خارج قريتهم، ولم يتمكن هؤلاء من العودة قبل سريان حظر التجول، وبعضهم لم يسمع بهذا القرار. وما إن بدأ العمال يصلون إلى قريتهم حتى كانت وحدات من الجيش الإسرائيلي تطلق النار عليهم، فسقط ٤٨ شهيداً.

١٧ صليبا خميس شيوعي قديم أُخرج من المكتب السياسي للحزب الشيوعي الإسرائيلي في سنة ١٩٧٢، ثم من اللجنة المركزية في سنة ١٩٨٥، ثم طرد من الحزب في سنة ١٩٨٧ لأنه اتهم الأمين العام مئير فلنر بأن له علاقة مريبة برئيس الموساد إيسر هَرئيل. وجاء هذا الكلام في مقابلة صحافية مع جريدة "كول بو" العبرية في ١٩٨٧/٩/٢٣ (انظر: جورج كرزم، "الحزب الشيوعي الإسرائيلي"، القدس: منشورات الشعلة، ١٩٩٣؛ محمود محارب، "دراسة نقدية: الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية: ١٩٤٨ ـ ١٩٨١"، القدس: ١٩٨٩).

١٨ ولد جبر ضومط في صافيتا في سنة ١٨٥٩، وانتقل إلى بيروت في سنة ١٨٧٢ للدراسة في الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأميركية فيما بعد). شارك في تأسيس المجمع العلمي العربي في سورية، وله "فلسفة اللغة العربية وتطورها" (١٩٢٩) و"الخواطر في اللغة" (١٨٨٦)، وتوفي في سنة ١٩٣٠.

١٩ ولد تقي الدين النبهاني في قرية إجزم ـ قضاء حيفا في سنة ١٩٠٩، ونال الشهادة العالمية من الأزهر في القاهرة. أسس في سنة ١٩٥٢ حزب التحرير الإسلامي، وتوفي في بيروت في سنة ١٩٧٩.

٢٠ العقد الفريد كتاب من ٢٥ جوهرة منضدة على النحو التالي: لؤلؤة، وفريدة، وزبرجدة، وجمانة، ومرجانة، وياقوتة، وجوهرة، وزمردة، ودرة، ويتيمة، وعسجدة، ومخبية، ثم الواسطة، ثم اللؤلؤة الثانية، والفريدة الثانية... وهكذا. ألّفه أحمد بن حمد بن عبد ربه الأندلسي، وصدرت الطبعة الأولى منه في القاهرة ـ المطبعة العثمانية، في سنة ١٣٠٢ هـ.

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

النكبة

نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود

١٩٤٧ – ١٩٤٩

(ثلاثة أجزاء)

تأليف: **عارف العارف**

إعداد وتقديم: **وليد الخالدي**

١٥٥٨ صفحة ٦٠ دولاراً